

التداولية من الاتجاهات اللسانية

إن المتتبع لتطور البحث اللساني الحديث يمكن له أن يلاحظ أن العديد من التساؤلات التي كان يطرحها الباحثون اللسانيون و فلاسفة اللغة، على أنفسهم، لم تتمكن النظريات البنوية (Structurales) من الإجابة عنها، وقد استطاعت هذه التساؤلات أن تجد سبيلها في اتجاه جديد، هو أصلا مجموعة من الأفكار والملاحظات اللسانية و الفلسفية، صادرة هنا و هناك، كانت الغاية منها الإجابة عن مجموعة الأسئلة من نمط : من يتكلم؟ من يقع عليه الكلام؟ ماذا نفعل حينما نتكلم؟ ما هي قيود الحديث؟ لماذا التلميح أبلغ من التصريح؟ لماذا نقول أشياء ونصرح مباشرة بعدم قولها؟ متى يكون إقناعا؟...

٣ و قد دفع ذلك بعض النقاد و اللغويين إلى إطلاق تسمية (Poubelle Espagnole) عليها، لأنها استطاعت أن تحتوي على مجموعة كبيرة من الأفكار و التصورات ذات مستويات و مشارب مختلفة و متفاوتة. و في سبيل ذلك استعانتها و توسلها لمختلف العلوم الاجتماعية و الإنسانية الأخرى، و هو أمر أنجر عنه اتساع أفقها المعرفي و النظري، و جعلها قادرة على تناول مختلف الخطابات الصادرة عن الإنسان، دون أن يشكل ذلك عائق للخروج بنتائج معتبرة.

٤ يعتبر تحديد (شارل موريس Charles Morris) أول محاولة لضبط ماهية التداولية، و قد حصرها ضمن مجال السيمائية و أسند إليها دراسة العلاقة بين العلامات و مستعملي هذه العلامات و ذلك بعدما بين أن تفاعل العلامات فيما بينها يشكل ما نسميه علم التراكيب، و تفاعل العلامة بما تل عليه يفضي إلى علم الدلالة.

١ Orecchioni, C. K : Enonciation de la subjectivité dans le language.- Paris, Armand Colin, ١٩٨٠.-p. (...)

٥ فالتداولية إذن هي دراسة للجانب الإستعمالي للغة. و هنا تحدد (أوركينيوني Orecchioni) وظيفة التداولية "في استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل الثلاثية الآتية : المرسل - المتلقي - الوضعية

التبليغية. إن أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق التي تؤول فيه الجملة^١ و هنا يتجلى العنصر الرابط بين مختلف النظريات والتوجهات التي شكلت ما نسميه التداولية، و هو السياق Contexte. فاختلاف الزاوية التي ينظر من خلالها إلى السياق، هو الذي جعل تلك النظريات تختلف فيما بينها في تحديد ماهية التداولية. فمنهم من يرى أنها هي الأقوال التي تتحول إلى أفعال ذات صبغة و امتداد اجتماعيين، بمجرد التلفظ بها وفق سياقات محددة و منهم من يلخص التداولية في دراسة الآثار التي تظهر في الخطاب، و يدرس هؤلاء أثر الذاتية في الخطاب من خلال الضمائر و الظروف المبهمة (Déictiques). و منهم من يلخصها في مجموعة من قوانين الخطاب Lois du discours أو أحكام المخاطبة Maximes conversationnelles على حد تعبير الفيلسوف جراسيس - التي تضي على الخطاب صيغة ضمنية أو تلميحية و ذلك من خلال دراسة الأقوال الضمنية Les énoncés implicites كالفتراضات المسبقة Présupposes و الأقوال المضمرة.

٦ إن التداوليين ينظرون إلى اللغة على أنها لعبة Jeux de langage، و يقصد بها الصبغة المؤسساتية للغة أثناء الاستعمال. فعندما يتكلم الإنسان، فقد يخضع أقوله لمجموعة من القواعد الضمنية تجعله يميز بين الكلام "السوي" و غيره، مثلما هو الحال بالنسبة للاعب الشطرنج، و هذا ما يفسر استخدام مصطلح إستراتيجيات الخطاب. و قد اختصر منقونو (Maingueneau) التداولية وفق هذا التصور في أنماط ثلاثة : القانون و المسرح و اللعبة. إن الكلام باعتباره فعلا متحققا لا ينفصل عن المؤسسة إذ مجرد التلفظ بالأمر، يضيف على المتكلم مرتبة الأمر، فيضع غيره في مرتبة المأمور، و هذا قابل للتحقيق وفق شروط تحددها أعراف كل لغة. و هذا يجرنا إلى الحديث عن التعاقد الذي يمكن المتكلمين من التعارف على الصيغ الكلامية المناسبة لكل حال من أحوال الخطاب.

٧ و نشير هنا إلى أن النمط القانوني للغة هو ذو صبغة ضمنية، فالذين لا يحترمون هذه القوانين لن يتعرضوا للسجن، إنما العقاب يكون ضمنا، كأن نجيب شخصا قد تجاوز حدود الحديث : لم نرع الغنم معا، احترم نفسك حينما تتحدث معي... إلى غيرها من الإجابات التي يسعى المخاطب إلى إعادة مخاطبه إلى صوابه "الغوي".

• Maingueneau, D : Nouvelles tendances en analyse du discours.- Paris, Hachette, ١٩٨٧.-p. ١٩.

٨ و بالنسبة للقانون، يقول منقونو^٢ إنه من السهل الانتقال من النسق القانوني إلى "الدور" (Rôle) ذلك أن المسرح هو صورة مصغرة للعالم و الحياة، حيث توزع الأدوار على كل شخص، و بالتالي فإن خطاب الممثلين و الشخصيات المسرحية هو نفسه خطاب المتكلمين في الواقع. فالمؤلف أو المخرج المسرحي لا يخرج إلا نادرا عن الأعراف الخطابية و الإجتماعية للغة التي يكتب فيها.

الدرجات الثلاث للتداولية

٣ . أنظر مداخلة الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي في : "ندوة الأستاذ" بمعهد اللغة العربية و آدابها بجامعة (...)

٩ أشرنا أعلاه إلى الدور الأساسي للسياق في تحقيق النمط التداولي للغة، فقد أضحي هو العامل المشترك بين مختلف النظريات المشكلة للتداولية، إلا أن درجة تدخل السياق في كل نظرية هو الذي يحدد ميزات كل منها، و أضحي هذا التصور الخطوة الأولى في تنظيم و هيكلية النظريات التداولية. و يعد "الهولاندي هانسون" أول من جرب التوحيد بطريقة نظامية و تجزئة مختلف المكونات التي تطورت لحد الآن بطريقة مستقلة: ٣"

أ- التداولية من الدرجة الأولى أو نظرية الحديث

١٠ إن أشهر من نظر لهذه النظرية العالم اللغوي الفرنسي إميل بنفيسيت (E.Benveniste) الذي أكد على ضرورة التمييز بين اللغة كسجل من الأدلة و نظام تتركب فيه هذه الأدلة و اللغة كنشاط يتحقق من خلال وقائع الخطاب التي تخصصها علامات خاصة، تلك العلامات التي يسميها بنفيسيت "المؤشرات"، يكمن دورها في تصيير اللغة خطابا فعليا. هذا التعبير يسميه الحديث Enonciation وهو إجراء اللغة و تحقيقها من خلال فعل كلامي فردي.

١١ و يعكف الدارسون في هذا المستوى على دراسة البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في اللغة.

ب- التداولية من الدرجة الثانية أو نظرية قوانين الخطاب

١٢ و هي تتضمن دراسة الأسلوب الذي يرتبط بقضية مطروحة، حيث تكون هذه الأخيرة متباينة عن الدلالة الحقيقية للقول، و هي تدرس كيفية انتقال الدلالة من المستوى الصريح إلى مستوى التلميح، بالسعي وراء استنباط و معرفة العمليات المتسببة في ذلك فهذه النظرية تنظر إلى اللغة باعتبارها مجموعة من الاقتراحات المسبقة و من الأقوال المضمرة و الاحتجاج...

ج- التداولية من الدرجة الثالثة أو نظرية أفعال الكلام La théorie des actes du langage

١٣ تنطلق هذه النظرية من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة عن المتكلمين، ضمن وضعيات محددة، تتحول إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية.

• . ١٨٥.-p. Orechioni,C.K : Op.cité. ٤

١٤ و ترجع هذه النظرية في أول عهدها إلى الفلاسفة التحليليين الإنجليز أمثال أوستين (Austin) و تلميذه سيرل اللذان بينا أن اللغة ليت بنى و دلالات فقط، بل هي أيضا أفعال كلامية ينجزها المتكلم ليؤدي بها أغراضا، فهو عمل يطمح المتكلم من خلاله إلى إحداث تغيير معين في سلوك المخاطب بالفعل أو بالكلام. تقول أوركينيوني في هذا الإطار : "إن الكلام هو بدون شك، تبادل للمعلومات، ولكنه أيضا إنجاز لأفعال مسيرة وفق مجموعة من القواعد (بعضها كلية، حسب هابرماس (Habermas) من شأنها تغيير وضعية المتلقي و تغيير منظومة معتقداته و/أو وضعه السلوكي، و ينجز عن ذلك أن فهم الكلام و إدراكه يعني تشخيص مضمونه الإخباري و تحديد غرضه التداولي، أي قيمته و قوته الإنجازية ٤"

١٥ و يتكون الفعل الكلامي، حسب أوستين، من :

- فعل لغوي acte locutoire : لا تدخن
- فعل إنجازي acte illocutoire : و هو النهي في المثال السابق
- الفعل التأثيري acte perlocutoire : و يتمثل في رد فعل المخاطب بالاستجابة أو الرفض.

١٦ و قد وسع نظرية سيرل نظرية أفعال الكلام، فأوضح لكل فعل شروط إنجازة، ووضع مجموعة من القواعد تتحول بها الأفعال الكلامية المباشرة إلى أفعال غير المباشرة إضافة إلى هذه التقسيمات الثلاثة، هناك أخيرا، مجموعة من التحليلات اللغوية تدرج ضمن الدراسات التداولية و تهتم بالخطاب بصفته نصا تحدد قواعد معينة سواء أ كنا نهتم بالمحادثة أو بالمحاجة أو بالنصوص بمختلف أنواعها، حيث تطورت منذ سنوات قليلة دراسات يمكن إدراجها فيما يسمى اليوم اللسانيات النصية (La linguistique textuelle).